١٢

الخاتمة

وعطف الله على هذا اليتيم قلوبًا مُلئت حُبًا، وفاضت حنانًا ورحمةُ، قلما يظفر بمثلها المنَعَّمون المترفون من أبناء الأغنياء، وأصحاب الثراء الواسع والجاه العريض. هذه الأمة الحبشية قد ورثها اليتيم عن أبيه الفقيد مع خمسة أجمال أوراك[١] وقطعة من الغنم كانت حين أقبل اليتيم إلى هذه الأرض فتاةً فى ريعان الشباب ومبتدأ الحياة، لم ننس وطنها القديم ولم تألَف وطنها الجديد، ولم تسلُ عن حريتها، ولم تأنس إلى رِقّها. نفسها معلقة بين لونين من ألوان الحياة: كان أحدهما صفوًا كله، وهو لون الحياة العزيزة فى بلد عزيز وبين قوم أعزَّةٍ كرام. وكان الآخر يُوشك أن يكون كدرًا كله، لا تنظر إلا رأته مظلمًا حالكًا، لا يبسم فيه أمل، ولا ينبعث منه ضوء، وهو لون الحياة الذليلة فى بلد نازح، وبين قوم غرباء لا تعرفهم ولا تألفهم؛ إنما دفعتها إليهم خطوب الحياة دفعًا، وألقتها إليهم صروف النوى إلقاء. فهذا شبابها يذيل، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق. وهذه آمالها تُبتر بترًا، وقد كانت تريد أن تمتد وتنبسط. وهى ترى هذا كله خاشعة خاضعة، مؤمنة مذعنة، مل تختر منه شيئًا، ولا تستطيع أن تغير منه شيئًا. وهى قد وطَّنت نفسها أو وطَّنتها الأحداث على أن تكون أمةً طيِّعة تخدُم سادتها فى نصح أو فى غش، ولكنها تُظهر لهم الطاعة والخضوع على كل حال. وهى محزونة النفس كاسفة البال، لا تبتسم إلا مُتكلفة ولا ترضى إلا متصنَّعة، ولا تطمئن إلى هؤلاء الذين من حولها ينظرون إليها نظرات مهما يملأها العطف والرفق، فهى نظرات السادة الذين يملكون ويستعلون، ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون، كما يتصرفون فى الأشياء: لهم أن يبيعوها وإن لم تُؤثِر أن تباع، ولهم أن يَهبوها وإن لم تحب أن تُوهب، ولهم أن ينقلوها من يد إلى يد، ومن مكان إلى مكان، ولعلها أن تكون مُؤثرةً لهذه اليد التى بُسطت عليها، منكرة لهذه اليد التى يراد أن تُنقلَ إليها. ولعلها أن تكون قد ألفت هذا المكان الذى استقرت فيه وكرهتْ غيره من الأمكنة. ولكنها لا تستطيع أن تريد أو لا تستطيع أن تُنفذّ ما تريد. وأى قيمة للإرادة إذا عجز صاحبها العجز كله عن أن يُنفذَها ويُجرى أحكامها! إنما الإرادة العاجزةُ أقبحُ صور الذل، وأشنعُ ألوان الرق، وأبغض ما يلقى الإنسان فى الحياة. انظر إلى هذه الأمة الناشئة لم تتعود الرق بعدُ ولم تطمئن إليه، نفسها ثائرة مُظلمة، وقبلها جامح مكظوم، وهى مبغضةٌ لكلَّ إنسان، ضيقة بكل شيء. انظر إليها تشهدُ ما شَهدَ غيرُها من النساء فى تلك الليلة الفذة، فتضطرب نفسها الناشئة لما رأت، ويبتهج قلبها الحزينُ لم

---

(١) الأوارك من الإبل: التي ترعى الأراك، واحدتها آركة.

اشهد، ثم لا تكاد ترى هذا الوليد اليتيم حتى يُلقى اللهُ حبه فى قلبها، وحتى يعطفها الله عليه، وحتى يجعله لها قرّة عين، وحتى يُصبح وجهه الصغير المضىء ابتسامةً فى حياتها المظلمة، ويُصبح شخصه الضئيل العظيم منقِذًا لها من هذا اليأس القائم، وعزاءً لها عن هذا الشقاء العظيم. وإذا هى تألفُ الطفلَ وتكلف به، وإذا هى تحضن الطفل وتحنو عليه، وإذ هى تُؤثره من المحبة والبر، ومن المودة والعطف ومن الحنان والرفق، بكل هذه الكنوز التى لا تفنى، والتى تحتويها قلوب النساء، والتى كانت تريد أن تَغيضَ لأن خُطوبَ الحياة قد فرضت عليها الرقّ والذل فرضًا. إن هذا اليتيم لينزل من قلبها الحزين منزل السرور، ومن نفسها الكئيبة منزل الابتهاج. إنها لتجد فيه كل ما فقدت من أمل وكرامة وعزَّة وحرية. إنها لتريد أن تختص به من دون الناس جميعًا. إنها لتريد أن تخصه بنفسها من دون الناس جميعًا. وإن الله ليحقق لها من هذا كله أكثر ما تريد. إنها لتقف نفسها على الطفل أيامًا، حتى إذا قبلت الظئر[1] فانتزعته منها ومن أمة انتزاعًا ورحلت به إلى البادية، ضاقت هى بالظئر وكرهتْ هذا ا لرحيل. ولو قد أتيح لها أن تنفذ ما كانت تريد لاستبقت الظئر معها فى مكة، أو لرحلت هى مع الظئر إلى البادية. ولكن متى أتيح لأمة أن تُنفذ ما تريد!ولها على ذلك أسوة بهذه الأم الحرة الكريمة التى تُسلم ابنها إلى الظئر، لا تستبقيها معها فى مكة، ولا ترحل هى مع الظئر إلى البادية.

فلتفارق صفيها دهرًا طويلاً أو قصيرًا، كما تُفارق الأم طفلها دهرًا طويلاً أو قصيرًا. ولتصبر على هذا الفراق. وهل خُلق الرقيقُ إلا للصبر والاحتمال!

ويُنفق الصبى عند الظئر ما شاء الله أن يُنفق من وقت، لا يزور أمه ولا حاضنته إلا لِمامًا. وكلتاهما تسعد بهذه الزيارة القصيرة، وكلتاهما تَشقى باستئناف الفراق، وكلتاهما تذعن لما لا بد من الإذعان له.

ثم يعود الصبى الناشئ من البادية إلى مكة، فيقيم إقامةً ملؤها الرحمة والعطف بين هذه القلوب الكريمة التى تحبه وتحنو عليه: قلب أمه الحرة المخزونة، وقلب حاضنته الأمَةِ الفتاة، وقلبَ جده الشيخ الوقور. كلهم سعيد بالعطف على هذا الطفل والرعاية له، والطفل ناعمٌ بعطفهم عليه ورعايتهم له.

ثم ترحل أمُ الطفل به إلى يثرب لتُزيره أخواله من بنى النجار، فترحل الحاضنةُ معها، ويَنعم الطفل بحنان هذين القلبين الكريمين. حتى إذا بلغ يثرب رأى أرضًا لم يكن قد رآها، وقد

---

(١) الظئر: التي ترضع غير ولدها وتعطف عليه.

قُدر له مع ذلك أن يُقيمَ فيها حيًا وأن يقيم فيها ميتًا، وقد سبقه أبوه إلى زيارتها، وقد سبقه أبوه على أن يُؤثرها له دارًا تؤويه.

هنالك رأى الطفل قبرَ أبيه. وهنالك لعبَ الطفلُ مع أطفال مثله سيكونون له أصدقاء وأنصارًا حين يَجدُّ الجدَ، وحين يبلغ الكتابُ أجله، وحين ينم فى الأرض ما قدر فى السماء. حتى إذا قضى الطفلُ وأمُه وَطرًا من زيارة الأرض الموعودة، عاد بين أميَّه الكريمتين إلى موطنه بمكة. ولكن قضاء الله يجب أن ينفذ، وحكمة الله يجب أن تبلغ، وإرادة الله يجب أن تكون.

فلا يكاد الطفل يبعد عن يثرب حتى تُلِمّ العلة بأمه كما ألمت بأبيه قبل أن يصل إلى الدنيا. ولا يكاد الطفل ينتهى على الأبواء [1] حتى ينزع الموتُ منه أمه أو ينزعه من أمه، كما نزع الموتُ منه أباه أو كما نزعه من أبيه.

وكذلك أديت الأمانةُ إلى الأرض، وذهب عبد الله وذهبت آمنة بعد أن أدَّياها. وأصبح الطفل كما أراد الله له أن يكون يتيمًا قد فقد أمه وفقد أباه، وليس له من يؤويه إلا الله الذى قد وعد بإيوائه وكفالته، وحفظه وحمايته من العاديات.

لقد خاض الطفلُ لحاضنته من دون الناس. فلتقف عليه نفسها كلها، لتقف عليه حبها كله، ولتخلُص له كما خلص لها. وانظر إليها تعود بالطفل إلى جَدّه وأعمامه وحيدًا فريدًا، ليس له من يرعاه أو يكلؤه إلا قلبها العظيم الكريم.

من ذلك الوقت أصحبت للطفل أمًا، رعته صبيًا وشابًا، فرغت له ولم تُشغل عنه بأحد ولا بشىء. حتى إذا بلغ سن الرجال واتخذ له أسرة، وأوى زوجه خديجة بنت خويلد، نظر إلى هذه الأمة التى نشَّأته ونعمته بحبها وحنانها، فأعتقها وردَّ لها حقلها الكامل فى الحياة الحرة الكريمة. هنالك اتخذت لها زوجًا من أهل يثرب كان مقيمًا بمكة، فعاشت معه ما شاء الله أن تعيش، ورحلت معه إلى يثرب، حتى إذا مات عادت إلى ابنها الأول ومعها ابنها الثانى أيمن بن عُبيد، فعاشت فى كنف هذا اليتيم وعاش معها ابنها سعيدين ناعمين.

ثم يُتم الله نعمته على هذا اليتيم، ويختاره لما قدر له من الكرامة واحتمال الأعباء الثقال، فلا تشغله نعمةٌ ولا محنة ولا راحةٌ ولا جهاد عن أمَه هذه. وانظر إليه يتحدث عنها إلى أصحابه فيقول هذه الكلمة التى ملؤها البر والحنان والوفاء: "إنها بقيَّة أهل بيتي!". وانظر إليه حريصًا على أن تحيا وتنعم بالحياة، حريصًا على ألا يكون حظها من السعادة فى هذه الدنيا أقل من حظ

---

(١) الإبواء: قرية بين المدينة ومكة، وبينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

غيرها من الحرائر، انظر كيف يلتمس لها الزوج فيقول لأصحابه: "مَنْ سره أن يتزوجَ امرأةً من أهل الجنة فليتزوج أمَّ أيمن".

هنالك أسرَع مولاه زيد فاتخذها له زوجًا.

إيه أيتها الأمُ الكريمةُ الرحيمة! لقد منحت ابنك صبيًا وشابًا كل ما كنت تستطيعين أن تمنحيه من الحب والود، ومن العطف والحنان. وها هو ذا الآن قد بلغَ؟ ما قدّر الله أن يبلغَ من ارتفاع المكانة وعُلوّ المنزلة وجلال الخطر! انظرى! إنه ليؤذَى فى سبيل الله. إنه ليُمتحن فى نفسه وفى عشيرته وفى أصحابه. إنه ليلقى فى ذلك أشد الجهد،ويحتملُ فى ذلك أعظمَ الثقل، ويستقبلُ ذلك بأحسن الصبر. انظرى إليه وانظرى إلى نفسك! إنك لَتُحبَّينه وتُكبرينه وترحمينه! لقد استجبت له حين دعا، وآمنت به حين أنذر وبشَّر. انظرى! إن قومه ليأتمرون به ليقتلوه أو يُخرجوه أو يُثبتوه[1]. وإن الله لَيأذنُ له فى الهجرة، وإنه ليترك مكة طريدًا ليعود إليها مُنتصرًا مُظفَّرًا. انظرى! إنه ليقيمُ الآن فى يثربَ بين أنصاره الذين آووه، وبين رفاقه الذين لَعبَ معهم صبيًا، وأنت تَرمُقينه وتَرعينه من قريب حينًا، ومن بعيد حينًا آخر. انظري! أتستطيعين فراقه؟ لقد ضقت بالظئر حين نقلته إلى البادية. كلا! كلا! إن أصحابه ليهاجرون ليلحقوا به ويعيشوا معه، فكيف لا تهاجر أمه! ومتى صبرت أمٌ مثلها على فراق ابن مثله! ها هى ذى قد تركت مكةُ مهاجرةً إلى الله ورسوله، وابنها وَصفيها. إنها لتقطع الطريق بين مكة والمدينةُ يؤنسها ما يملأ قلبه من الإيمان، وما يَعمره من الحب. إنها لتحمل مشقة الطريق وجهد السفر صابرةً عليهما. وما كان أصبرها على المشقة والجهد! إنها لتستلذ المشقة والجهد، وتستعذب الألم والضراء. إنها لتسافر صائمةً. إنها لتستأنس فى رحلتها بهذين الصديقين اللذين يحبهما المؤمنون: الظمأ والجوع، وأنعم بها رفيقين! وأنعم بهما مُعينين على الهجرة فى سبيل الله! إنها لتقطع أكثر الطريق وتصبح من المدينة غير بعيد. إن النهار ليتقدم بطيئًا مسرفًا فى البطء، وإن الشمس لترسل على الأرض أشعة من اللهب، وإن الأرض لتضطرمُ من شدة القيظ، وإن الجو ليتوهجُ من اللهب الذى يضطرم فيه، وإن هذه المرأة الضعيفة لتسعى فى هذه النار المحرقة إلى حيث تنعم بالحياة فى ظل ابنها وصفيها ومُخرجها من الرق إلى الحرية، ومخرجها من الظلمة إلى النور! إنها لتسعى ما وسعها السعي. ولكن الأمد بعيد، والجهد شديد، والماء مقطع والظمأ محرق، وجسمها ضعيفٌ لا يثبت لهذه العاديات التى لا تثبت لها أجسام الناس! ولكنها تسعى لا يائسة ولا بائسة ولا مستسلمة، حتى يبلغ الجهدُ بها أقصاه، وحتى يتراءى لمن تنقطع بهم أسباب الحياة فى الصحراء:

---

(١) ليثبتوه: ليسجنوه أو يوثقوه أو يثخنوه بالضرب والجرح، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح. (عن الكشاف).

شبحُ الموت. ولكنها مع ذلك لا تيأس ولا تستسلم، ولا تفارق ما ألفت من الرضا. انظرى أمامك ماذا ترين؟ إنه رشاءٌ أبيضُ ناصع البياض ينزلُ إليك من السماء، وقد عُلقت فيه دلو قد مُلئت ماءً. من أرسل إليك هذه الدول؟ من قدم إليك هذا الماء؟ لمَ أرسلت إليك هذه الدلو؟ لم قُدِّم إليك هذا الماء؟ هلم اشربى! فإنما تذوقين اليوم هذا الماء العذب ماء الخلود الذى ستشربينه بعد حين طويل أو قصير حتى يُسكنك الله دارك من الجنة! أرأيت أن أبنك لم يكن مُتكلفًا ولا مُغرّرًا حين قال لأصحابه: "من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن"! اشربى من هذا الماء، فلن تظمئى بعد هذه الشربة أبدًا!

وتشربُ أمُ أيمن من هذا الماء، وتُنفق أمُّ أيمن بعد هذه الشربة أعوامًا طوالاً، فيها الشدة واللين، وفيها البؤس والنعيمُ، وفيها الجهد والعناء، ولكنها لا تعرف الظمأ ولا تحسه ولا تشكوه، وكيف يظمأ مَنْ شربَ ماء الخلود!

أسرعى الآن يا أم أيمن إلى يثرب، فإن ابنك ينتظرك فيها، قد أمن بعد خوف، واطمأن بعد قلق.

وتبلغ أم أيمن المدينة، فيلقاها ابنها حفيًا بها عطوفًا عليها، وتلقاه هى بما عودته أن تلقاه به من هذا الحب السمح والعطف الباسم.

وتقضى معه أيامها فى المدينة، لا تكاد تفارقه إلا حين لا تستطيع أن ترافقه. انظر إليها يوم أُحد وقد شهدت الحرب مع المسلمين، وأنها لتطوف بالماء تسقى الجرحى ومن مسَّهُم الجهد. ولم لا وقد عرفت حر الظمأ وبرد الرَّى! ومن يدرى! لعل هذه القطرات التى كانت تصبها فى أفواه الجرحى قطرات قد مستها رحمةُ الله ففقدت جوهرها الفانى، واستحالت إلى هذا الجوهر الخالد الذى شربت منه أم أيمن حين تدلت إليها الدلو من السماء! وانظر إليها وقد شهدت خَيبر مع ابنها تُواسى المسلمين وتمنحهم من عطفها ورعايتها ورحمتها فضل ما يمتلئ به قلبها الساذج الكريم! وانظر إليها فى أيام السلم تغدو على ابنها وتروح إليه، فيلقاها مبتسمًا دائمًا، مبتهجًا دائمًا، مُداعبًا لها من حين إلى حين. تسأله مرة أن يحملها، فيقول لها: "أحملك على ولد الناقة" فلا تفهم منه، فتقول: يا رسول الله إنه لا يُطيقنى ولا أريده. فيقول مُتضاحكًا: "لا أحملك إلا على ولد الناقة!"

وكان ابنها يمزح ولكنه لم يكن يقول إلا حقًا. وكان يحب أن يداعبها ويعبث بها ى رفق: فهو يقول ذات يوم: "غطى قناعك يا أم أيمن". وتلقاه يوم حُنين قبل الموقعة، فتريد أن تدعو للمسلمين بخير فتقول: "ثَبَّت الله أقدامكم". فيقول ابنها: "اسكتى يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان!".

وقد سمع لها الله فثبت أقدام المسلمين. وقد امتحنها الله فاختار ابنها أيمن وآثره بالشهادة يوم حُنين.

إيه أيتها الأم الرءوم؛ إنك لتمنحين ابنك وصفيَّك اليوم شيئًا جديدًا لم تمنحين من قبل، إنك لتبذلين فى سبيل الله وفى سبيله دم ابنك العزيز. ولكنك تلقين الثُّكل صابرة آملة راضية، كما لقيت الظمأ من قبل صابرة محتملة واثقة. ولئن فقدت أيمنَ يوم حنين، إنّ لك لخلفًا منه فى ابنك أسامة بن زيد، أثير النبى وحبيبه، وقائد جيش المسلمين بأمر النبى وإن كان بعدُ لحَدثًا ناشئًا. هذا جيش ابنك أسامة مرابطًا يتأهب للرحيل. وهذا ابنك وصفيُّك فى بيته قد ثَقَل عليه المرض، وفُتحت له أبواب السماء وأقبلت عليه الملائكة أفواجًا تحمل إليه روح الله ورحمته وتبشره بجوار الله. انظرى! لقد اختار الله لنبيه جوارَ الأعلى، وصعدت نفسه الكريمة إلى حيث أريد لها أن تكون مع الصدّيقينَ والشهداء والصالحين وأصفياء الله وأنبيائه. ماذا؟ إنك لتبكين! وما يبكيك يا أم أيمن؟ قالت لمن ألقى عليها السؤال: أى والله! لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت، ولكنى إنما أبكى على الوحى إذا انقطع عنا من السماء.

نعم، لقد قُبض ابنك وانقطع الوحي، وستحملين ذلك دهرًا.

ستشهدين خلافة أبى بكر، وستشهدين خلافة عمر، وستبكين مرة أخرى حين يموت عمر، وستسألين عن هذا البكاء فتقولين: "الآن وَهَى الإسلام" وستستقبلين خلافة عثمان وقد طال صبرك على انقطاع الوحى، وشوقك إلى أخبار السماء، وسيسعى إليك المَلَكُ رفيقًا بك عطوفًا عليك، وسيقبض نفسك الكريمة إلى حيثُ تسعد بجوار ابنك الكريم!

تحدَّث ابنُ سعد قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: خاصم ابن أبى الفرات مولى أسامةَ بن زيد، الحسَن بن أسامة بن زيد ونازعه. فقال له ابنُ أبى الفرات فى كلامه: يا بنَ بركة (يريد أمَّ أيمن) فقال الحسن: اشهدوا. ورفعه إلى أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم، وهو يومئذ قاضى المدينة أو وال لعمرَ بن عبد العزيز، وقص عليه قصته. فقال أبو بكر لابن أبى الفرات: ما أردت إلى قولك يا بن بركة؟ قال: سميتها باسمها، قال أبو بكر: إنما أردت بهذا التصغير بها، وحالها من الإسلام حالها، ورسول الله يقول لها يا أمَّة ويا أمَّ أيمن! لا أقالنى الله إن أقلتك! فضربه سبعين سوطًا[1].

---

(١) طبقات ابن سعد الجزء الثاني صفحة ١٦٤.